

ابن جرير الطبري
إمام المؤرخين والمفسرين

من الرجال عمالقة، يجبرون ذاكرة التاريخ على المثول امامهم، لتلتقط علومهم الفريدة، واعمالهم الخالدة، ومصنفاتهم الباهرة، التي اصبحت فيما بعد منارة للعلماء، ونبعًا ثريًا لرجال الفكر والمعرفة، ومن هؤلاء العمالقة أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، الذي كان اكثر علماء عصره همة في طلب العلم وتحصيله، وفي تاليف امهات الكتب حتى روي انه كان يكتب اربعين صفحة كل يوم، وهو صاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ.

نشأته

ولد في آخر سنة ٢٢٤هـ، وكانت ولادته (بآمُل) عاصمة إقليم طبرستان، وتقع جنوب بحر قزوين، وهو متسع ممتد تشغل الجبال أكثر مساحته، وتعتبر (آمُل) أكبر مدينة في سهله، وهي كثيرة المياه، متهدلة الأشجار، متنوعة الثمار، وقد فُتح هذا الإقليم في عهد عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وفي هذه البيئة السهلة اللينة، المتمردة العاصية، التي تجمع بين الجبال الشاهقة، والسهول المنبسطة- نشأ ابن جرير الطبري، وما كاد يبلغ السن التي تؤهله للتعليم، حتى قدمه والده إلى علماء «آمل»، وشاهدته دروب المدينة ذاهبًا آيبًا يتأبط أدواته وقرطاسه.



إعداد:
منتصر
محمد عفيفي

وسرعان ما تفتح عقله، وبدت عليه مخايل النبوغ والاجتهاد، حتى قال عن نفسه: «حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا في التاسعة».





وقد رأى أبوه رؤيا في منامه أن ابنه واقف بين يدي رسول الله (ﷺ) ومعه مخلاة مملوءة بالأحجار، وهو يرمي بين يدي رسول الله (ﷺ)، وقص الأب على مُعبِّر رؤياه، فقال له: «إن ابنك إن كبر نصح في دينه وذبَّ عن شريعة ربه».

رحلته في طلب العلم

أول رحلة كانت إلى الرَّي فأخذ عن ابن حميد الرازي، ثم رحل به والده بعد سنوات قليلة من تحصيله لبعض العلوم الشرعية، وكانت هذه الرحلة إلى بغداد؛ حيث يوجد بها إمام أهل السنة والجماعة، والعالم الذي أطبقت شهرته الآفاق، أحمد بن حنبل (رحمه الله) إلا أن الأقدار لم تحقق للولد أمنيته، فقد مات العالم الجليل قبل أن يصل ابن جرير إلى بغداد، فانصرف عن بغداد، واتجه إلى البصرة، وهي موطن العلم، ومهبط القضاء، فجلس بين يدي علمائها، وأخذ عن شيوخها كمحمد بن بشار المعروف ببندار، ومحمد بن الأعلى الصنعاني وغيرهما؛ حيث كتب فيها عن إسماعيل بن موسى الفزاري (توفي سنة ٢٤٥هـ)، وهناد بن السري الدارمي (توفي سنة ٢٤٣هـ)، وأبي كريب محمد بن العلاء الهمذاني (توفي سنة ٢٤٨هـ)، ثم انتقل إلى واسط، ثم إلى الكوفة، ثم رجع إلى بغداد مرة أخرى، وكان قد اشتد عوده واستقام فكره، فأقام بها حينًا، ثم فكر في الرحيل إلى مصر، فوصل إليها سنة ٢٥٣هـ، وهناك اجتمع بمحمد بن إسحاق بن خزيمة، العالم المؤرخ؛ حيث قرأ عليه كتابه في السيرة، وأخذ عن شيوخها، كيونس بن عبد الأعلى، والربيع بن سليمان صاحب الشافعي (رحمهما الله)، وإسماعيل بن يحيى المزني، وغيرهم.

وعاد أبو جعفر إلى بغداد بعد رحلة طويلة، وانقطع للدرس والتأليف، وقد شغله كل ذلك عن أن يتزوج، أو أن ينشغل بمطالب الحياة، فعاش عَزَبًا.

مواقف من حياته

كان عفيفًا في نفسه، منضبطًا في أخلاقه، وكان يرفض دائمًا هدايا الوزراء والحكام، مترفعًا عن قبول نفحات السلاطين، ويذكر المؤرخون أن الخاقاني لما تقلد الوزارة، أرسل إلى ابن جرير مالاً كثيرًا فأبى أن يقبله، فعرض عليه القضاء فامتنع، فعاتبه أصحابه، وقالوا له: لك في هذا ثواب، وتحيي سنة قد دَرَسَت، وطمعوا أن يستجيب لهم ويقبل ولاية المظالم، فانتهرهم قائلاً: «لقد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه»، فخجلوا منه، وهكذا عاش الطبري راهبًا في محراب العلم والعمل حتى جاءته الوفاة.

وقيل: إن المكتفي أراد أن يحبس وقفًا تجتمع عليه أقاويل العلماء، فأحضر له ابن جرير فأملى عليهم كتابًا لذلك، فأخرجت له جائزة فامتنع عن قبولها، فقيل له: لا بد من قضاء حاجة، قال: أسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة، ففعل ذلك، وكذا التمس منه الوزير أن يعمل له كتابًا في الفقه، فألف له كتاب (الخفيف)، فوجه إليه ألف دينار فردها.

وروي عن محمد بن أحمد الصحَّاف السجستاني أنه قال: سمعت أبا العباس البكري يقول: جمعت الرحلة بين ابن جرير وابن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الروياني بمصر، فأرملوا، ولم يبق عندهم ما يقوتهم، وأضر بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة؛ فمن خرجت عليه

القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على ابن خزيمة، فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أصلي صلاة الخيرة، قال: فاندفع في الصلاة، فإذا هم بالشموع ورجل من قبل والي مصر يدق الباب، ففتحوا، فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو ذا، فأخرج صرة فيها خمسون دينارًا فدفعها إليه، ثم قال: وأيكم محمد بن جرير؟ فأعطاه خمسين دينارًا، وكذلك للروياني وابن خزيمة، ثم قال: إن الأمير كان قائلاً بالأمس، فرأى في المنام أن المحامد جياع قد طووا كشحهم، فانفذ إليكم هذه الصرر، وأقسم عليكم إذا نفدت فابعثوا إليه أحدكم.

وقال أبو محمد الفرغاني في ذيل تاريخه على تاريخ الطبري: حدثني أبو علي هارون بن عبد العزيز أن أبا جعفر لما دخل بغداد، وكانت معه بضاعة يتقوت بها فسرقت، فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه، وكمي قميصه، فقال له بعض أصدقائه: تنشط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، قال: نعم، فمضى الرجل فأحكم له أمره، وعاد فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره ما يلبسه فقربه الوزير، ورفع مجلسه، وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر، فاشترط عليه أوقات طلبه للعلم، والصلوات والراحة، وسأل استلاف رزق شهر، ففعل وأدخل في حجرة التأديب، وخرج إليه الصبي، وهو أبو يحيى، فلما كتبه أخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين، فلم تبق جارية إلا أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنانير، فرد الجميع، وقال: قد شرطت على شيء، فلا آخذ سواه، فدرى الوزير ذلك فأدخله إليه، وسأله، فقال: هؤلاء عبيد وهم لا يملكون، فعظم ذلك في نفسه.

وكان ربما أهدى إليه بعض أصدقائه الشيء،



قال عن نفسه «حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا في التاسعة»



فيقبله ويكافئه أضعافًا لعظم مروءته، وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل، وحاسد وملحد، فأما أهل الدين والعلم فغير منكرين علمه، وزهده في الدنيا، ورفضه لها وقناعته (رحمه الله)، بما كان يرد عليه من حصة من ضيعة خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة، وكان ينشد لنفسه:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي
واستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي
ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت بماء وجهي
لكنت إلى العلى سهل الطريق
ولي خلقان لا أرضى فعالهما
بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرًا
وإذا افتقرت فته على الدهر

قال أبو القاسم بن عقيل الوراق: إن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فقال: إنا لله، ماتت الهمم، فاختصر

ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ولما أن أراد أن يملي التفسير قال لهم نحوًا من ذلك، ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ.

مكانته العلمية ونظرة العلماء إليه

كان ابن جرير - رحمه الله - عالمًا فاضلاً، ومفكرًا إسلاميًا جليلاً، شغف منذ صباه بالعلم، ووهبه جُلَّ حياته، وقصر عليه أيامه ولياليه، حدث عن نفسه فقال: «جاءني يومًا رجل فسألني عن شيء في علم العروض، ولم أكن نشطت له قبل ذلك، فقلت له: إذا كان غدًا فتعال إليَّ، وطلب سفر العروض للخليل بن أحمد، فجاءوا له، فاستوعبه، وأحاط بقواعده وكلياته في ليلة واحدة، يقول: «فأمسيت غير عروضي، وأصبحت عروضيًا»، ولكثرة تعمقه في العلوم الشرعية، صار مجتهدًا في الفقه، صاحب مذهب بعد أن كان على مذهب الشافعي (رحمه الله)، يقول أحد تلاميذه: كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء، والحفظ على ما لا يجهله أحد عرفه؛ لأنه جمع من علوم الإسلام، ما لا نعلمه اجتمع لأحد من الأمة، ولا ظهر من كتب المصنفين، وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له.

ووصفه الخطيب بقوله: «كان إمامًا يُحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه، وكان عالمًا بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام»، وذكر الخطيب في تاريخه أن ابن جرير مكث أربعين سنة يكتب كل يوم منها أربعين ورقة، وقال أبو حامد الإسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرًا».

وقال عنه الذهبي - رحمه الله: كان ثقة حافظًا صادقًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات واللغة، وغيرها.

الطبري وكتابه
«جامع البيان في تأويل القرآن»

قال السيوطي في الإتقان: «وكتابه أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط فهو يتفوق بذلك على تفاسير الأقدمين»، وقال النووي: «أجمعت الأمة على أنه لم يُصنَّف مثل تفسير الطبري».

وقد حوى ابن جرير تراث التفسير الذي تفرق قبله في كتب صغيره منذ عصر عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) إلى النصف الأول من القرن الثالث الهجري، ومما يتميز به تفسير الطبري اعتماده على المأثور عن النبي (ﷺ) وعلى آراء الصحابة والتابعين، ثم أضاف إلى التفسير بالمأثور ما عرف في عصره من نحو وبلاغة وشعر، كما رجع إلى القراءات وتخير منها، ورجح ما تخيره، وعرض كثيرًا من آراء الفقهاء في مناسباتها.

منهجه في التفسير:

١ - اتبع طريقة الإسناد في سلاسل الروايات، لذا كان تفسيره سجلاً لما أثر من آراء، وغالبًا ما يلخص الفكرة العامة، ويعقب عليها بذكر الروايات التي قد تختلف في التفصيل والإيجاز.

٢ - تجنب التفسير بالرأي، وعقد فصلاً في مقدمة كتابه، ذكر فيه بعض الأخبار التي وردت بالنهي عن القول بالتفسير بالرأي، والتزم هذا الأسلوب في كتابه؛ حيث أنحى باللائمة على القول بالرأي، ومما يزيد ذلك ما جاء في تفسيره: «فقائل في تأويل كتاب الله الذي لا يدرك علمه إلا ببيان من رسول الله (ﷺ)، الذي

• HASSAD EL FIKR • العدد (189) محرم 1429هـ • يناير 2008م

القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على ابن خزيمة، فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أصلي صلاة الخيرة، قال: فاندفع في الصلاة، فإذا هم بالشموع ورجل من قبل والي مصر يدق الباب، ففتحوا، فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو ذا، فأخرج صرة فيها خمسون دينارًا فدفعها إليه، ثم قال: وأيكم محمد بن جرير؟ فأعطاه خمسين دينارًا، وكذلك للروياني وابن خزيمة، ثم قال: إن الأمير كان قائلاً بالأمس، فرأى في المنام أن المحامد جياع قد طووا كشحهم، فأنفذ إليكم هذه الصرر، وأقسم عليكم إذا نفدت فابعثوا إليه أحدكم.

وقال أبو محمد الفرغاني في ذيل تاريخه على تاريخ الطبري: حدثني أبو علي هارون بن عبد العزيز أن أبا جعفر لما دخل بغداد، وكانت معه بضاعة يتقوت بها فسرقت، فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه، وكمي قميصه، فقال له بعض أصدقائه: تنشط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، قال: نعم، فمضى الرجل فأحكم له أمره، وعاد فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره ما يلبسه فقربه الوزير، ورفع مجلسه، وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر، فاشترط عليه أوقات طلبه للعلم، والصلوات والراحة، وسأل استلاف رزق شهر، ففعل وأدخل في حجرة التأديب، وخرج إليه الصبي، وهو أبو يحيى، فلما كتبه أخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين، فلم تبق جارية إلا أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنانير، فرد الجميع، وقال: قد شرطت على شيء، فلا آخذ سواه، فدرى الوزير ذلك فأدخله إليه، وسأله، فقال: هؤلاء عبيد وهم لا يملكون، فعظم ذلك في نفسه.

وكان ربما أهدى إليه بعض أصدقائه الشيء، فيقبله ويكافئه أضعافًا لعظم مروءته، وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل، وحاسد وملحد، فأما أهل الدين والعلم فغير منكرين علمه، وزهده في الدنيا، ورفضه لها وقناعته (رحمه الله)، بما كان يرد عليه من حصة من ضيعة خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة، وكان ينشد لنفسه:



قال عن نفسه «حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا في التاسعة»



إذا أعسرت لم يعلم رفيقي
واستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي
ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت بماء وجهي
لكنت إلى العلى سهل الطريق
ولي خلقان لا أرضى فعالهما
بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرًا
وإذا افتقرت فتِه على الدهر

قال أبو القاسم بن عقيل الوراق: إن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فقال: إنا لله، ماتت الهمم، فاختصر

ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ولما أن أراد أن يملي التفسير قال لهم نحوًا من ذلك، ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ.

مكانته العلمية ونظرة العلماء إليه

كان ابن جرير - رحمه الله - عالمًا فاضلاً، ومفكرًا إسلاميًا جليلاً، شغف منذ صباه بالعلم، ووهبه جُلَّ حياته، وقصر عليه أيامه ولياليه، حدث عن نفسه فقال: «جاءني يومًا رجل فسألني عن شيء في علم العروض، ولم أكن نشطت له قبل ذلك، فقلت له: إذا كان غدًا فتعال إليَّ، وطلب سفر العروض للخليل بن أحمد، فجاءوا له، فاستوعبه، وأحاط بقواعده وكلياته في ليلة واحدة، يقول: «فأمسيت غير عروضي، وأصبحت عروضيًا»، ولكثرة تعمقه في العلوم الشرعية، صار مجتهدًا في الفقه، صاحب مذهب بعد أن كان على مذهب الشافعي (رحمه الله)، يقول أحد تلاميذه: كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء، والحفظ على ما لا يجهله أحد عرفه؛ لأنه جمع من علوم الإسلام، ما لا نعلمه اجتمع لأحد من الأمة، ولا ظهر من كتب المصنفين، وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له.

ووصفه الخطيب بقوله: «كان إمامًا يُحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه، وكان عالمًا بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام»، وذكر الخطيب في تاريخه أن ابن جرير مكث أربعين سنة يكتب كل يوم منها أربعين ورقة، وقال أبو حامد الإسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرًا».

وقال عنه الذهبي - رحمه الله: كان ثقة حافظًا صادقًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات واللغة، وغيرها.

الطبري وكتابه «جامع البيان في تأويل القرآن»

قال السيوطي في الإتقان: «وكتابه أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط فهو يتفوق بذلك على تفاسير الأقدمين»، وقال النووي: «أجمعت الأمة على أنه لم يُصنَّف مثل تفسير الطبري».

وقد حوى ابن جرير تراث التفسير الذي تفرق قبله في كتب صغيره منذ عصر عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) إلى النصف الأول من القرن الثالث الهجري، ومما يتميز به تفسير الطبري اعتماده على المأثور عن النبي (ﷺ) وعلى آراء الصحابة والتابعين، ثم أضاف إلى التفسير بالمأثور ما عرف في عصره من نحو وبلاغة وشعر، كما رجع إلى القراءات وتخير منها، ورجح ما تخيره، وعرض كثيرًا من آراء الفقهاء في مناسباتها.

منهجه في التفسير:

١ - اتبع طريقة الإسناد في سلاسل الروايات، لذا كان تفسيره سجلاً لما أثر من آراء، وغالبًا ما يلخص الفكرة العامة، ويعقب عليها بذكر الروايات التي قد تختلف في التفصيل والإيجاز.

٢ - تجنب التفسير بالرأي، وعقد فصلاً في مقدمة كتابه، ذكر فيه بعض الأخبار التي وردت بالنهي عن القول بالتفسير بالرأي، والتزم هذا الأسلوب في كتابه؛ حيث أنحى باللائمة على القول بالرأي، ومما يزيد ذلك ما جاء في تفسيره: «فقائل في تأويل كتاب الله الذي لا يدرك علمه إلا ببيان من رسول الله (ﷺ)، الذي

جعل إليه بيانه- قائل بما لا يعلم، وإن وافق قوله ذلك في تأويله ما أراد الله به من معناه؛ لأن القائل فيه بغير علم قائل على الله ما لا علم له».

٣ - دقة الإسناد: كان رحمه الله أمينًا دقيقًا في ذكر السند، وفي تسجيل أسماء الرواة؛ لأنه اتصل بكثير من العلماء وسمع منهم، فإذا كان قد سمع هو وغيره قال: حدثنا، وإذا كان قد سمع وحده قال: حدثني، وإذا نسي واحدًا من سلسلة الرواية صرَّح بنسيان اسمه.

٤ - الاستعانة بعلم اللغة: هذا وقد مكنه علمه باللغة، وأساليب استعمالها من أن يفضل معنى للكلمة على معنى آخر تحتمله، ومن ذلك قوله: وقال تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجًا﴾ (الفرقان:٦١) يعني بالبروج القصور، وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: هي قصور في السماء؛ لأن ذلك في كلام العرب، ومنه ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ (النساء:٧٨)، ومنها قول الأخطل لعنه الله:

كأنها برج رومي يشيده

بان بجص وآجر وأحجار.

٥ - الإكثار من الأحاديث النبوية: وكان يكثر من الأحاديث النبوية، لأنه درس الحديث على كبار المحدثين في عصره، وفي مقدمتهم علماء طبرستان.

٦ - الاستشهاد بالشعر: وكثيرًا ما اعتمد على الشعر في بيان المراد من الكلمة، تارة يذكر اسم الشاعر، وأخرى يغفله مكتفيًا بالشعر.

٧ - تسجيل القراءات: عرض وجوه القراءات ورجح ما ارتضاه؛ لأنه كان عالمًا بالقراءات ومؤلفًا فيها، وله أيضًا عناية بتفصيل مذاهب النحاة في كثير من المواضع ليجلو المعنى.

٨ - مناقشة الآراء الفقهية: للطبري كتاب «اختلاف الفقهاء»، فهو فقيه دارس للمذاهب كلها، بل ومجتهد صاحب مذهب اختاره لنفسه، ومن البداهة أن يعرض للآراء الفقهية ويناقشها في مناسباتها من آيات الأحكام، وينتهي في مناقشة كل منها إلى ما يستصوبه، وكان يعرض لآراء المتكلمين ويسميهم أهل الجدل، ويناقشها، ويصوب الرأي السلفي الذي يدين به.

والإدلاء برأيه بعد المناقشة سمة ظاهرة في تفسيره، فكان يرفض ويعلل لرفضه، وكان يرجح ويدلل على ترجيحه، وكان يؤيد ويبرهن على تأييده.

٩ - وإذا كان تفسير ابن جرير من أجلّ التفاسير بالمأثور، وأعظمها قدرًا، فَلِمَ سمَّى كتابه «جامع البيان عن تأويل القرآن»؟ فاستعمل كلمة تأويل، ولم يستعمل كلمة تفسير.

والجواب أن التأويل الذي يريده الطبري هو التفسير، كما يتضح من خصائص تفسيره، فاللفظان: التفسير والتأويل مترادفان عنده، وهما بمعنى الكشف عن ألفاظ القرآن والتوضيح لمعانيه ومراميه.

فالتفسير لغة: كشف المراد عن اللفظ المشكل، وأصله من الفَسْر، وقيل هو مقلوب: السَّفر، أسفر الصبح إذا أضاء.

وقيل التفسير أعم من التأويل.

فالتفسير بيان العبارة القرآنية من مفردات جمل بيانًا كاشفًا لحقيقة المعنى على حسب المتعارف عليه من أساليب العرب في كلامهم وخطابهم، إما حقيقة وإما مجازًا، سواء كان المعنى متبادرًا بالاستعمال، كتفسير الصراط بالطريق، والصيب بالمطر، أو غير متبادر كتفسير (أُخفيها) في قوله: ﴿أكاد أخفيها﴾ (طه: ١٥)، بمعنى أظهرها.

والتأويل اجتهاد المفسر في ترجيح المقصود من المعاني المختلفة التي يحتملها اللفظ، فكأن التأويل: إخبار عن حقيقة المراد كقوله تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ (الفجر:١٤)، تأويله: التحذير من التهاون بأمر الله أو الوعيد (لمن يخالف الله)، بينما تفسير: (لبالمرصاد) أنه من أرصد، يقال: أرصدته أي رقبته، والمرصاد مفعال.

١٠ - والطبري رأس المفسرين على الإطلاق، فقد جمع في تفسيره بين الرواية والدراية، ولم يشاركه في ذلك أحد من قبله ولا من بعده.

وإذا كان يؤخذ عليه أنه يذكر سلاسل الروايات من غير بيان، وتمييز لصحيح هذه الروايات من ضعيفها، فلأنه -على ما يظهر- من المؤلفين الذين يرون أن ذكر السند يخلي المؤلف من المؤاخذة والتبعة، ولو لم ينص على درجة الرواية.

مؤلفاته

كان ابن جرير الطبري من أكثر علماء عصره نشاطًا في التأليف، وأشهر مؤلفاته تفسيره المعروف بتفسير الطبري، وكتاب «تاريخ الأمم والملوك».

قال أبو محمد بن الفرغاني: تم من كتب ابن جرير الطبري:

- كتاب التفسير الذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب يحتوي على علم مفرد مستقصى لفعل.

- وتم من كتبه كتاب التاريخ إلى عصره.

- وتم أيضًا كتاب تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين وشيوخه الذين لقيهم.

- وتم له كتاب لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، وهو مذهبه الذي اختاره وجوده، واحتج له، وهو ثلاثة وثمانون كتابًا.

- وتم له كتاب القراءات والتنزيل والعدد.

- وتم له كتاب اختلاف علماء الأمصار.

- وتم له كتاب الخفيف في أحكام شرائع الإسلام، وهو مختصر لطيف.

- وتم له كتاب التبصير، وهو رسالة إلى أهل طبرستان يشرح فيها ما تقلده من أصول الدين.

- وابتدأ بتصنيف كتاب تهذيب الآثار، وهو من عجائب كتبه، ابتدأ بما أسنده الصديق مما صح عنده سنده، وتكلم على كل حديث منه بعلله وطرقه، ثم فقهه واختلاف العلماء وحججهم، وما فيه من المعاني والغريب، والرد على الملحدين، فتم منه مسند العشرة وأهل البيت والموالي وبعض مسند ابن عباس، ومات قبل تمامه.

- وابتدأ بكتابه البسيط، فخرج منه كتاب الطهارة، فجاء في نحو من ألف وخمس مئة ورقة، لأنه ذكر في كل باب منه اختلاف الصحابة والتابعين وحجة كل قول، وخرج منه أيضًا كتاب الصلاة، وخرج منه آداب الحكام وكتاب المحاضر والسجلات.

- وكتاب ترتيب العلماء، وهو من كتبه النفيسة ابتداه بآداب النفوس وأقوال الصوفية، ولم يتمه.

- وكتاب المناسك، وكتاب شرح السنة، وهو لطيف بيَّن فيه مذهبه واعتقاده.

- وكتابه المسند المخرج يأتي فيه على جميع ما رواه الصحابي من صحيح وسقيم، ولم يتمه.

- كتاب الفضائل بداه بفضل أبي بكر ثم عمر، ولم يتم الكتاب.

اتهامه بالتشيع

أولا: حقيقة ما اتهم به:

ليس المراد باتهام الطبري بالتشيع مجرد حب

عليٍّ (رضي الله عنه) وشيعته، ومعرفة فضل آل البيت، فهذا جزء من الدين، وهو من عقيدة أهل السنة والجماعة، ولكن المراد بالاتهام التشيع المرفوض والمذموم، الذي يغالي في حب علي (رضي الله عنه) وآل البيت، ويتطرف في حبهم، ويصل إلى الطعن في بقية الصحابة، وازدراء مواقفهم، وسبهم سرًا وعلنًا.

ثانيا: سبب الاتهام:

يرجع سبب الاتهام إلى عدة أمور، وهي:

١ - تصنيفه في فضائل عليٍّ بن أبي طالب (رضي الله عنه).

٢ - إثباته الأسانيد والروايات لحديث غدير خم.

٣ - مناظرته داود الظاهري التي نتج عنها أن صنف ابن داود الظاهري، واسمه محمد كتابًا في الرد على الطبري، ورماه بالعظائم والرفض، كما ذكر ذلك عوام الحنابلة في بغداد.

٤ - اشتباه اسمه باسم أحد الروافض وهو محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري.

٥ - إكثاره من الرواية عن لوط بن يحيى، ويكنى بأبي مخنف، وقد روى عنه خمس مئة وسبعًا وثمانين رواية، وهو إخباري تالف لا يوثق به، كما قال عنه الذهبي، وقد رمي بالرفض والكذب.

ثالثا: بطلان هذه التهمة:

لا شك أن الإمام الطبري إمام من أئمة أهل السنة والجماعة، فقد قال عنه الخطيب البغدادي: «كان أحد أئمة العلماء يُحكم بقوله، ويرجع إلى آرائه، لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره».

وقال مؤرخ الإسلام الحافظ أبو عبد الله الذهبي:

(الإمام الجليل المفسر أبو جعفر صاحب التصانيف الباهرة من كبار أئمة الإسلام المعتمدين)، وقال ابن كثير: «.. بل كان أحد أئمة الإسلام علمًا وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله»، يتبين من خلال كلام هؤلاء العلماء الجبال أن الطبري من أئمة الإسلام المعتمدين، ومن أهل السنة والجماعة، وهو بعيد كل البعد عن هذه التهمة.

وأما عن الأمور التي نقمت وشغب بها عليه، فيقال فيها ويجاب عنها بما يأتي:

١ - تصنيفه في فضائل عليٍّ (رضي الله عنه):

هذا ليس دليلاً على تشعيُّه؛ وذلك أن أهل السنة والجماعة يقرون بفضله (رضي الله عنه) وإمامته، وأنه رابع الخلفاء الراشدين، وله من الفضائل والمناقب الكثير، الذي لا يكاد يخلو منه كتاب من كتب السنة.

ثم إنه - رحمه الله - صنف كتابًا في فضائل أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - وهذا ما لا تصنفه الروافض.

٢ - تصحيحه لحديث غدير خم، وجمعه للروايات والأسانيد: فهي من ناحية حديثية بحتة، ولا يلزم من تصحيحه للحديث أن يكون شيعيًا رافضيًا.

قال ياقوت: «كان قد قال بعض الشيوخ ببغداد بتكذيب خبر غدير خم، وقال: إن عليًّ بن أبي طالب، كان باليمن في الوقت الذي كان الرسول (ﷺ) بغدير خم، وبلغ أبا جعفر ذلك، فابتدأ الكلام في فضائل عليٍّ بن أبي طالب، وذكر طرق حديث غدير خم».

قال ابن كثير: (رأيت له كتابًا جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين).

٣ - أما ما كتبه محمد ابن داود الظاهري في الرد على ابن جرير الطبري، فهو مجرد دعوى مفتقرة إلى الدليل، ثم إن كلام الأقران يطوى ولا يروى، وينبغي أن يتأنى فيه، وينظر ويتمهل؛ لاسيما إذا لم يوافقه غيره فيه.

٤ - أن ابن جرير الطبري قد وافقه أحد علماء الرافضة في اسمه، واسم أبيه، وكنيته، ولقبه، ومعاصرته، وكثرة تصانيفه.

قال الذهبي (رحمه الله): «أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ، فقال: كان يضع للروافض، كذا قال السليماني، وهذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندعي عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه، لا سيما في مثل إمام كبير، فلعل السليماني أراد الآتي»، ويقصد بالآتي أبو جعفر محمد جرير بن رستم الطبري، قال الذهبي عنه: «رافضي له تواليف، منها كتاب الرواة عن أهل البيت، رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني»، قال ابن حجر في لسان الميزان معلقًا على كلام الذهبي: «ولو حلفت أن السليماني ما أراد إلا الآتي لبررت، والسليماني حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه، فلا أعتقد أن يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل».

وقد كان ابن رستم هذا يقول بقول الشيعة في مسح الأرجل في الوضوء، فنسب خطأ إلى صاحبنا الطبري.

٥ - أما روايته عن أبي مخنف؛ فقد بين - رحمه الله - في مقدمة تاريخه موقفه من رواية أبي مخنف وغيره، فقال - رحمه الله -: «وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره، مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه..

إلي أن قال: فما يكون في كتابي هذا من خبر ذكرناه، عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لا يعرف له وجهًا من الصحة، ولا معنىً من الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنَّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا.

رابعًا: أقوال العلماء في عقيدته:

(١) **أبو القاسم اللالكائي**: في سياق ما روى من المأثور عن السلف في جمل اعتقاد أهل السنة، والتمسك بها، والوصية بحفظها قرنًا بعد قرن وذكره - رحمه الله - عقيدة الثوري والأوزاعي، وابن عيينه، وابن حنبل، وابن المديني، وأبي ثور، والبخاري، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والتستري - ذكر طرفًا من عقيدة ابن جرير الطبري التي رواها عنه بالإسناد الصحيح.

(٢) **ابن تيمية**:

أشار إلى عقيدة الطبري شيخ الإسلام ابن تيمة في قاعدة الاسم والمسمى من مجموع الفتاوى ١٨٧/٦ فقال: «كما ذكره أبو جعفر الطبري في الجزء الذي سماه «صريح السنة» ذكر مذهب أهل السنة في القرآن والرؤية، والإيمان والقدر والصحابة وغير ذلك.

وذكر أن مسألة اللفظ ليس لأحد من المتقدمين فيها كلام؛ كما قال لم نجد فيها كلامًا عن صحابي مضى ولا عن تابعي قفا، إلا عمن في

كلامه الشفاء والغناء، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأولى أبو عبد الله أحمد بن حنبل، فإنه كان يقول: اللفظية جهمية، ويقول: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع، وذكر أن القول في الاسم والمسمى من الحماقات المبتدعة التي لا يعرف فيها قول لأحد من الأئمة» اهـ.

(٣) **الذهبي:** ذكره ضمن السلف الذين يثبتون علو الله، واستواءه على العرش، ونقول قول الطبري بالإسناد: «وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى، فمن تجاوز ذلك، فقد خاب وخسر)، ثم قال: وتفسير ابن جرير مشحون بأقوال السلف على الإثبات.

(٤) **ابن القيم:** قال في كتابه «اجتماع **الجيوش الإسلامية**»: قول الإمام ابن جعفر محمد بن جرير الطبري- الإمام في الفقه، والتفسير، والحديث، والتاريخ، واللغة، والنحو، والقرآن، ونقل كلامه وعده من جملة السلف الذين يرجع لأقوالهم في مسائل الاعتقاد.

(٥) **عبد الله بن عبد العزيز المصلح آل شاكر:** قال: «الطبري سلفي المعتقد، وله مع أهل الزيغ صولات وجولات».

(٦) **علي بن عبد العزيز الشبل:** قال: الإمام ابن جرير الطبري من كبار أئمة السنة والجماعة المتبعين منهج وعقيدة السلف الصالح في أنواع توحيد الله، وبقية أصول الإيمان وما يتبعه من مسائله والصحابة، والإمامة، فهو في الكل على مذهب أهل الحديث، مذهب الطائفة الناجية والفرقة المنصورة، لم يعرف عنه غير هذا، وتفسيره مليء بكل ما ذكرت، بل هو مصدر تفسير أهل السنة والجماعة.

٧- **محمد الحمود النجدي:** قال: له كتاب في عقيدة أهل السنة والجماعة، أسماه (**صريح السنة**)، أما عقيدته في التفسير، فهو إمام متبع، نصر مذهب السلف، واحتج له، ودافع عنه، ولكنه في صفة الغضب والحياء ذكر أقوال المفسرين دون أن يرجح شيئًا منها.

وفــاتـه

قال أبو محمد الفرغاني حدثني أبو بكر الدينوري قال: لما كان وقت صلاة الظهر من يوم الاثنين الذي توفي في آخره ابن جرير، طلب ماءً ليجدد وضوءه، فقيل له: تؤخر الظهر وتجمع بينها وبين العصر، فأبى وصلى الظهر مفردة، والعصر في وقتها أتم صلاة وأحسنها، وحضر وقت موته جماعة، منهم أبو بكر بن كامل، فقيل له قبل خروج روحه: يا أبا جعفر أنت الحجة فيما بيننا وبين الله فيما ندين به، فهل من شيء توصينا به من أمر ديننا وبينة لنا نرجو بها السلامة في معادنا؟ فقال: الذي أدين الله به، وأوصيكم هو ما ثبت في كتبي؛ فاعملوا به وعليه، وأكثر من التشهد، وذكر الله - عز وجل - ومسح يده على وجهه، وغمض بصره بيده وبسطها، وقد فارقت روحه الدنيا، ودفن في داره برحبة يعقوب - يعني ببغداد، وشيَّعه من لا يحصيهم إلا الله تعالى.

قال الخطيب: «واجتمع عليه - حال الجنازة - من لا يحصيهم عددًا إلا الله، وصُلِّي على قبره عدة شهور ليلاً ونهارًا، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب»، وكان ذلك في شوال من سنة ٣١٠هـ.

رثاء الطبري

روي عن أبي الحسن هبة الله بن الحسن الأديب لابن دريد يرثي الطبري في قصيدة طويلة جاء فيها:

لن تستطيع لأمر الله تعقيبا
فاستنجد الصبر أو فاستشعر الحوبا
وافزع إلى كنف التسليم وارض بما
قضى المهيمن مكروها ومحبوبا
إن الرزية لا وفر تزعزعه
أيدي الحوادث تشتيتا وتشذيبا
ولا تفرق آلاف يفوت بهم
بين يغادر حبل الوصل مقضوبا
لكن فقدان من أضحى بمصرعه
نور الهدى وبهاء العلم مسلوبا
إن المنية لم تتلف به رجلا
بل أتلفت علما للدين منصوبا
أهدى الردى للثرى إذ نال مهجته
نجما على من يعادي الحق مصبوبا
كان الزمان به تصفو مشاربه
فالآن أصبح بالتكدير مقطوبا
كلا وأيامه الغر التي جعلت
للعلم نورا وللتقوى محاريبا
لا ينسري الدهر عن شبه له أبدا
ما استوقف الحج بالأنصاب أركوبا
إذا انتضى الرأي في إيضاح مشكلة
أعاد منهجها المطموس ملحوبا
لا يولج اللغو والعوراء مسمعه
ولا يقارف ما يغشيه تانيبا
تجلو مواعظه رين القلوب كما
يجلو ضياء سنا الصبح الغياهيبا
لا يأمن العجز والتقصير مادحه
ولا يخاف على الإطناب تكذيبا
ودت بقاع بلاد الله لو جعلت
قبرا له لحباها جسمه طيبا
كانت حياتك للدنيا وساكنها
نورا فأصبح عنها النور محجوبا
لو تعلم الأرض من وارت لقد
خشعت أقطارها لك إجلالا وترحيبا
إن يندبوك فقد ثلت عروشهم
وأصبح العلم مرثيا ومندوبا
ومن أعاجيب ما جاء الزمان به
وقد يبين لنا الدهر الأعاجيبا
أن قد طوتك غموض الأرض في لحف
وكنت تملأ منها السهل واللوبا

وقال أبو سعيد بن الأعرابي:

حدث مفظع وخطب جليل
دق عن مثله اصطبار الصبور
قام ناعي العلوم أجمع لما
قام ناعي محمد بن جرير

المصادر:

- سلسلة من أعلام العرب.. ابن جرير الطبري.
- موقع طريق القرآن.
- موقع نداء الإيمان.
- موقع الشبكة الإسلامية.
- موقع صيد الفوائد ■